رذيلة لجلب فضيلة ، وبهذا التأويل تتوجّه الآيةُ الكريمة جهةً فلسفيةً عالية لا يأتى البيانُ ولا العلمُ ولا الفلسفة بأوجزَ ولا أكمل من لفظها ؛ ويتوجّهُ الصيام على أنه شريعة اجتماعية انسانية عامة ، يتّقى بها الاجتماع شرورَ نفسِه ، ولن يتهذّبَ العالَم إلا إذا كان له مع القوانين النافذة هذا القانونُ العام الذى اسمُه الصوم ومعناه « قانون البطن » .....

ألا ما أعظمَكَ يا شهر رمضان ! لو عرَفَكَ العالَمُ حقّ معرفتِك لسمَّاكَ « مدرسةَ الثلاثين يوماً »

طنطا مصطفى صادق الرافعى

نظرية الاستقلال القومى

وتطبيقها على التاريخ المصرى

للأستاذ محمد عبد الله عنان

أشارت إحدى الصحف الانكليزية الكبرى أثناء حديثها أخيراً عن الشئون المصرية ، الى نظرية تاريخية قديمة ترددها ألسنة الاستعمار فى كل مناسبة ، وهى أن مصر لم تكن مستقلة فى أى عصر من عصور تاريخها

وترمى ألسنة الاستعمار بترويج هذه النظرية الى غرض واضح ، وهو أن مصر التى لم تتمتع خلال هذه الآماد الطويلة من تاريخها بنعمة الاستقلال والحرية ، ليست جديرة بأن تتخذ مكانها بين الأمم المستقلة ، وأن حكم التاريخ يقضى عليها بأن تكون دائماً مسودة لغيرها من الأمم القوية ؛ فلماذا لا تكون انكلترا هى الدولة التى تنفذ على مصر حكم التاريخ الخالد ؟ ولماذا تحاول مصر أن تغالب قدرها ، وطبيعتها كأمة استعبدت مدى الأحقاب تنافى طبائع الحرية والاستقلال ؟

وهذه نظرية باطلة بلا ريب ، يهدمها حكم التاريخ النزيه الحق ؛ ولكنها أيضاً نظرية خطرة ؛ وترويجها فى العالم المتمدن يضر بالقضية المصرية ضرراً بليغاً ، ويسيء الى تراث مصر التاريخى ، وإلى سمعتها كأمة ناهضة تطمح الى تحقيق استقلالها . ومن الأسف أن هذا القول الباطل فى تصوير التاريخ المصرى ، يروج له فى مصر ذاتها ، ويتأثر به كثير ممن يطغى على أذهانهم وعواطفهم سيل الثقافة الأجنبية ، ولا يعرفون شيئاً من تاريخ بلادهم . بل من الأسف أن هذه النظرية الاستعمارية الخطرة ، ما زالت تمثل فى تعليم التاريخ فى بلادنا وفى معاهدنا ، لأن برامج التعليم الرسمية ما زالت بعيدة عن التحرر من أغلال المؤثرات الأجنبية ، بعيدة عن رعاية النواحى القومية

ولهذا نرى أن نعرض بهذه المناسبة الى بحث هذه النظرية لنرى حظها من التطبيق على عصور التاريخ المصرى . وأول ما يلفت النظر ذلك التصوير الخاطىء الذى يصور به تعاقب العصور والدول على مصر ؛ فمصر حسبما تقول النظرية ، قد غادرت منذ أيام الفراعنة عهد الحريات القومية إلى الأبد ، وتعاقبت عليها الدول الغالبة تباعا ، فافتتحها الفرس ، ثم اليونان ، ثم الرومان ، ثم العرب فى سلسلة متصلة من السيادة الأجنبية ، وتعاقبت عليها بعد ذلك دول اسلامية أجنبية من الشرق والغرب ودول المماليك المختلفة حتى كان الفتح التركى ، فاستمرت تحت السيادة التركية حتى كان الفتح الفرنسى وظهور محمد على ؛ ولم يطل أمد استقلالها عندئذ ، حتى عادت فوقعت فى قبضة الانكليز ، واتصلت بذلك حلقات استعبادها الطويل

وتصوير أدوار التاريخ المصرى على هذا النحو تصوير خاطىء من الوجهة العلمية ، وتصوير مغرض وضعه الكتاب الغربيون منذ أوائل القرن الماضى — وهم أول من كتب عن تاريخ مصر فى العصر الحديث — ومعظمهم متأثر بنزعة الغرب الى استعمار الشرق ، وتبرير هذه النزعة بالعوامل التاريخية والاقتصادية ونشر المدنية الحديثة . وقد كان لدعواهم أثر كبير فى معظم ما كتب عن مصر ؛ بل لقد تأثر بها الكتاب المصريون أنفسهم ، وتأثرت بها دراسة التاريخ فى مصر وبرامجه الرسمية ؛ وأضحى واجباً علينا أن نحارب هذه النظرية الخطرة فى كل مناسبة ، وأن نبين خطأها من الناحية العلمية

لقد توالت على مصر حقاً عصور طويلة من الغلبة والاستعباد ، ولكنها تمتعت أيضا بعصور طويلة من الحرية والاستقلال والسؤدد القوى . وقد قطعت مصر أيام الفراعنة آماداً بعيدة فى ظل الحريات القومية والاستقلال المطلق ، وكانت سيدة امبراطورية مصرية تمتد من قلب السودان الى الشام ؛ وكان

لها فى تلك العصور من القوة والعظمة والمدنية الزاهرة ، ما لم تتمتع به أية أمة من الأمم الغابرة . وإذا كانت مصر قد سقطت فى عصور الانحلال فريسة النير الأجنبي ، واستبمرت ترزح نحو الف وخمسمائة عام تحت نير الهكسوس والفرس واليونان والرومان ، فقد تمتعت بحرياتها واستقلالها قبل ذلك آلاف السنين

ويبدو خطأ نظرية الكتاب الغربيين بنوع خاص فى الحكم على تاريخ مصر منذ الفتح الاسلامى ، فهم لا يكتفون باعتبار هذا الفتح بدء عصر جديد من الاستعباد بالنسبة لمصر ، بل يرون أن مصر كانت طوال الدول الاسلامية التى تعاقبت عليها ، أمة مسودة خاضعة لنير الحكم الأجنبي ، ويعتبرون هذه الدول كلها ، دولا غازية سيدة ؛ وهو خطأ كبير فى فهم الحقائق التاريخية وفى تصويرها . ويجب أن نذكر أولاً أن الأمة المصرية لبثت أيام الفرس واليونان والرومان تحتفظ بطابعها الفرعونى القديم ، وأن هذه الدول الغازية لم تستطع أن تجعل من الأمة المصرية المغلوبة وحدة من وحداتها الاجتماعية ، وإن كانت مصر قد تأثرت بلا ريب بنفوذ هذه الدول وحضاراتها ؛ وعلى هذا فقد كانت مصر فى هذه العصور أمة مغلوبة حقاً ، ولكن تحتفظ باستقلالها كوحدة اجتماعية . بل لقد استطاعت مصر أن تحتفظ بهذا الاستقلال الاجتماعى ، حتى بعد أن أرغمت على اعتناق النصرانية ، ولم تندمج قط فى الامبراطورية الرومانية ، كما اندمجت أمم وشعوب أخرى . ولكن الأمة المصرية شهدت منذ الفتح الاسلامى تطوراً جوهرياً فى تكوينها الاجتماعى ؛ فقد استطاع العرب فى أقل من قرن أن ينشئوا منها أمة اسلامية ، وأن يجعلوا منها وحدة اجتماعية من وحدات الامبراطورية الاسلامية الكبرى ؛ واندمج الغالب والمغلوب فى أمة جديدة موحدة تدين بالاسلام وشرائعه ، وتتكلم بلغته ، وتضطرم بروحه ؛ ولم يأت القرن الثالث من الهجرة حتى أضحى التمييز عسيراً بين السلالة العربية النازحة ، وبين السلالة المصرية المسلمة . وكانت مصر حتى منتصف القرن الثالث ولاية من ولايات الخلافة ؛ ولكنها استطاعت من ذلك الحين أن تنزع الى الاستقلال فى ظل الدولة الاسلامية الكبرى ، على يد بعض الحكام والقادة الخارجين على الخلافة ؛ وبدأت من ذلك الحين سلسلة الدول الاسلامية المستقلة فى مصر

وهنا تعرض النقطة الجوهرية . هل كانت مصر سيدة أم مسودة فى ظل هذه الدول ؟ وهل كانت مصر الفاطمية ، والأيوبية ، ومصر فى عهد أسر المماليك المختلفة حتى الفتح العثمانى ، أمة مستقلة أم كانت ترزح تحت النير الأجنبي ؟ وجوابنا أن مصر كانت فى تلك العصور أمة مستقلة تتمتع بكامل حرياتها القومية ، وكانت أمة سيدة لا مسودة ، تسير فى ميدان الحرب والسلام من ظفر الى ظفر . أما هذه الدول الأجنبية المسلمة التى كانت تتبوأ السلطان والحكم ، فلم تكن أكثر من أسر نازحة أو مستقرة تبوأت الرياسة لأصولها الملوكية أو لمؤهلاتها الخاصة ؛ ولم تكن تتولى هذه الرياسة لحسابها الخاص ، وإنما كانت تتولاها لحساب الأمة المصرية ، وتعمل باسمها وبتأييدها ، فكانت تغدو بعد استقرارها أسراً مصرية خالصة ليس لها مركز للرياسة غير مصر ، وليست لها أمة أخرى تمثلها غير مصر ؛ وحتى الدولة الفاطمية التى دخلت مصر غازية ، لم تشذ بعد استقرارها عن هذه القاعدة ، فكانت مصر هى مركز الدولة الفاطمية ومستقرها ، وغدت الخلافة الفاطمية مصرية بعد أن كانت مغربية ؛ ومنذ الدولة الأيوبية حتى الفتح العثمانى تظهر الأسر السلطانية فى مصر ذاتها ، بين القادة والأمراء النابهين ؛ ولم تكن تلك العروش والأسر التى قادت الأمة المصرية منذ الدولة الفاطمية الى الظفر فى ميادين الحرب ، والى مراتب العظمة والبهاء فى ميادين السلام والحضارة ، سوى عروش وأسر مصرية أو متمصرة ، تعمل جميعاً لمصر وباسمها ، ولم تكن تلك الجيوش الباسلة التى لبثت أكثر من قرنين تتلقى ضربات الحملات الصليبية فى مصر والشام ، وتبث أعمالها وانتصاراتها الروع فى أمم الغرب ، سوى جيوش مصرية تقودها تلك الأسر التى ارتضتها لزعامتها ؛ على أن تلك الأسر الملوكية ذاتها لم تلبث غير بعيد أن فقدت زعامتها السياسية ، وأصبحت خاضعة فى التعيين والعزل لرأى الأمة المصرية ممثلة فى زعامتها الدينية والفكرية ؛ وإنه لمن التعسف أن نخرج من حظيرة الأمة المصرية أسراً نبهت فيها ، وتولت زعامتها بحكم تراثها الموروث آماداً ، وعملت لمصر ولم تعمل لسواها ، ولم يبق لها من صبغتها الأجنبية سوى ذكريات المنشأ والماضى

كانت مصر الاسلامية إذاً ، منذ تقلص عنها ظل الخلافة ، أمة مستقلة ، وكانت مصر الاسلامية أمة مستقلة حين غزاها الترك العثمانيون وحطموا بها صرح حضارة اسلامية زاهرة

تكدست على ممر العصور ؛ ولقد كان الفتح العثمانى عملاً هجمياً ، كما كانت فتوح القبائل البربرية لرومة وأقطار الدولة الرومانية ؛ ولم يكن عملاً إنشائياً ، كما كان الفتح الاسلامى ؛ على أن مصر استطاعت فى ظل أولئك الوندال أن تسترد غير بعيد كثيراً من مظاهر استقلالها المحلى ؛ ولم يأت القرن الثامن عشر حتى أصبحت السيادة العثمانية على مصر سيادة اسمية ، كل ما يهم الحكام الترك منها أن يستدروا بعض الموارد والأموال من الشعب المحكوم

ولا حاجة بنا للقول بأن مصر استردت كامل استقلالها فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وان كانت قد عادت فانضوت تحت لواء أسرة جديدة

* * *

مما تقدم يبدو تصوير النظرية الغربية لعصور التاريخ المصرى بأنها سيادات أجنبية متعاقبة ، واستبعاد متصل للأمة المصرية ، تعسفاً لا يؤيده منطق الحقائق التاريخية ؛ ولو طبقنا هذه النظرية الخاطئة على التاريخ القومى لبعض الأمم الأوربية العريقة فى الاستقلال والحرية لانتهينا فى شأنها إلى مثل ما ينتهى الكتاب الغربيون فى شأن مصر . ولنتخذ فرنسا مثلاً ، فقد نزحت إليها عقب انهيار الدولة الرومانية قبائل غازية من الشمال ، وأقام بها « الميروفنجية » على يد زعيمهم كلوفيس ، منذ القرن السادس مملكة جديدة هى مملكة الفرنج ؛ ولما انحلت أسرة الميروفنجية ، قامت بأمر الفرنج الأسرة « الكارلية » القوية ، وانتزعت عرش الفرنج ، واستمرت فى زعامة فرنسا حتى أواخر القرن التاسع ، وتبع فيها أميران من أعظم أمراء النصرانية هما كارل مارتل الذى رد العرب فى بلاط الشهداء (سنة ٧٣٢ م) وكارل الأكبر (شارلمان) أعظم ملوك الغرب فى عصره ؛ وكان الميروفنجية والكارلية كلاهما من القبائل الألمانية الشمالية ، فهل نعتبر أن فرنسا كانت فى هذه العصور أمة مستعبدة نزح تحت حكم النير الأجنبى ، لأن أسراً أجنبية نزحت إليها ، واستقرت بها ، وتولت زعامتها ، وعملت لحسابها وباسمها ؟ وهل نعتبر نابليون (وهو إيطالى الجنس والأصل) فاتحاً لفرنسا مغتصباً لعرشها وزعامتها ، ونعتبر أن فرنسا كانت فى عصره خاضعة للحكم الأجنبى ؟ ونستطيع أن نلاحظ بهذه المناسبة أيضاً أن أدولف هتلر زعيم ألمانيا وسيد مصايرها اليوم ، إنما هو أجنبى نمسوى المولد والنشأة ؛ ومن المعروف أن الأسرة التى تتولى عرش انكلترا اليوم ، إنما ترجع إلى أصل ألمانى ، وأن معظم الأسر الملوكية الأوربية ترجع إلى أصول أجنبية ، وإذا كانت هذه الأسر اليوم لا تتمتع بمثل ما كانت تتمتع به أسر السلاطين من السلطة المطلقة ، فذلك لأن روح العصر قد تطورت ، وغاضت روح العصور الوسطى ، وانتهت الأمم بأن جعلت من العروش رمزاً قومياً ليس غير

وإذا كانت مصر قد رزحت تحت نير الحكم الأجنبى فى بعض أدوار تاريخها ، فهى لم تشذ فى ذلك عن معظم الأمم الغربية التى تتمتع اليوم بكامل حرياتها واستقلالها ، ولنضرب لذلك مثلاً بأمة عظيمة هى إيطاليا ، التى لم تتمتع باستقلالها إلا منذ أواخر القرن الماضى ، والتى لبثت طوال العصور الوسطى والحديثة مسرحاً لمطامع الدول والعروش الأجنبية ، ولم تستقل فيها سوى البندقية وبعض الجمهوريات الصغيرة . ولنضرب مثلاً آخر باليونان ، وقد لبثت زهاء ألفى عام ترزح تحت نير الحكم الأجنبى ، منذ الرومان فالبنادقة فالترك ، ولم تنل حرياتها القومية إلا منذ قرن فقط ، ولم تنلها إلا بمؤازرة أوربا النصرانية ؛ وهنالك غير إيطاليا واليونان ؛ هنالك هولندة والبلجيك ، وهنالك بولونيا التى لبثت ثلاثمائة عام ممزقة بين دول ثلاث من جيرانها ، وهنالك رومانيا والمجر ، وتشيكوسلوفاكيا ، فهذه كلها أمم حديثة فى الاستقلال والحريات القومية ، ولم يقل انسان إنها من أجل ذلك تستحق أن يسلب استقلالها وأن تسكن إلى نير التغلب إلى الأبد

والخلاصة أننا كلما تأملنا هذه النظرية الاستعمارية فى تصوير أدوار التاريخ المصرى ، كلما بدا بطلانها وتعسفها وما يحفزها من الغرض والهوى

فليستعرض الشباب المصرى تاريخ بلاده كلما طرقت آذانه هذه النغمة الغادرة . فتاريخ مصر ، كتاريخ الأمم العظيمة ، حافل بمواطن الفخار والمجد ، وعصور الحرية والاستقلال ؟

محمد عبد الله عنان
المحامى